

النقد الجائر

بمقد رضوان إبراهيم

وإلا ان يثيروا الغبار في وجه الموكب ، وهم محسبون انهم يردونه عن الغاية، ويظنون انهم بضجيجهم الصاخب هذا يحولون مجرى العدالة .. عدالة التاريخ قاضي الأجيال ..

فالمثني عندهم ليس بشاعر ؛ لانه طامع يتخذ الشعر وسيلة لأطعامه ..

وأبو تمام ليس بشاعر ؛ لانه اتخذ من شعره معرضاً لتخيل العلوم وصناعة البديع ..

والبحثري ليس بشاعر ؛ لانه لم يتأثر بالبيئة الثقافية المحيطة به .
وأبو العلاء ليس بشاعر ؛ لانه فيلسوف حمل الشعر ما لا يحتمل وألزمه ما لا يلزم !

وشوقي ليس بشاعر ؛ لانه مدح الاقطاعيين وحطب في جبالهم !
والبارودي مقلد .. وحافظ خطيب ..

.. هكذا يخلطون ، وهكذا يفسطون ، حتى لا يبقى في العرب أقدمون ولا محدثون !

ومثل ذلك ينددون بالكتاب ..

.. فابن المقفع مترجم ينقل افكار الفرس وغيرهم .

والجاحظ معرض مشوش من الافكار والآراء والمعارف لم يتميز فيه موهبة اصيلة ، ولم تنضج فيه ملكة بمنازة ..

والمنفلوطي منشيء يرص الكلام بعضه الى بعض ، وليس بكتاب ذي فكرة ..

والرافعي سطحي النظرة ، يعاقل الفاظ اللثة ، ويوصي بالفقر ، ويعلم الناس الخنوع ..

يمثل هذا تتردد السنة فئة هدامة من نقاد اليوم ، ويمثل هذا يرون انهم امسكوا المعاول ، وهدوا هذه الصروح ، ثم وقفروا على انقاضها يتنفسون الصعداء .

لا ندري لماذا ، لاننا لا نعرف لهم هدفاً من وراء تحطيم هؤلاء الأعلام ، وربما كانوا هم ايضاً لا يعرفون .

ولكن التاريخ يقف من وراءهم مقهقهاً ساخرآ ، مشفقاً من الجهود التي ينفقونها على غير طائل .

يحاول بعض الأدباء احياناً ان يتهجموا بالباطل على تراثنا الادبي ، ويحاولون ان ينتقصوه ، وان يحطوا من شأنه بغير الحق .

وتلك فرية لو تسمحنا فيها لاصغار الادباء الذين يحاولون ان يبرزوا ويتناولوا ، وان يبنوا صروحهم بانقراض هذا التراث – فلن نعتفرها لأولئك الشيوخ الذين يزعمون لأنفسهم الصدارة في دنيا الادب والنقد ، أو تواتيهم الفرص ان يمثلوا دور العرجي في حي المقعدين .

ويبقى بعد ذلك تساؤلنا حائرآ عن الدوافع الحبيثة الهدامة التي يستهدفونها في هذه الهجمات المغرضة التي تخرج ماضيها الادبي في صورة باهتة مهزولة ، وتظهر ادبانا في مبادل الافاقين والمشعوذين ، وتخرج هذا التراث كله ، فتشيع في الناس انه حثالة لا يصلح لشيء ، ولا يبقى منه شيء جدير بالاعزاز أو الفخار ، ويبقى شباب الادباء ، وناشئة المتأدبين في العالم العربي بلا مثل ولا قدوة ، وما اوقحها جنابة على الماضي والحاضر والمستقبل !

فماذا يبقى لنا – إذن – من مجد فكري نبقي عليه ونتأثره ، ونحن نراه – كما يزعمون – إفكاً وهتاناً !?

وبماذا نعتز ، وقد اوهمونا ان ما بين ايدينا منه هباء وهرج زائف لا يثبت على النقد ؟

ومن اسف ان اكثر من يستهدفون لهذا الهجوم بمن استأثرت بهم الحياة الباقية ، واحتضنتهم الدار الآخرة ، وصاروا في مواكب التاريخ ، فأفسح لهم من صدره ، وأنزلهم في رحابه ... ترى ، هل كان يجيق بهم ظلم الظالمين لو كانوا احياء !

من الناس من لا يعجبهم إلا ان ينبشوا القبور ، ليجثوا بين امواج رمالها البيضاء عن حمأة يشهرون بها ، وإلا ان يطمسوا معالم الطريق بين يدي الأجيال المنطقية ، ويشككهم في القيم الأدبية وفي الروائع التي صارت عدوان الزمن ..

لا .. لا .. رويدكم ايها السادة !!

فنحن نظلم الواقع ، ونظلم الزمن إذا طبقنا على أسلافنا القريبين أو البعيدين مقاييس النقد الحديث ، أو أقمنا لهم من مزاجنا موازين جائزة مختلفة . فما على الامزجة الفردية ، أو الاحداث الطارئة والاهواء المتقلبة تستوى مبادئ النقد الاصيل . ونحن اذا تناسينا البيئة الادبية او السياسية او الاجتماعية التي يندمج فيها الاديب ، أو الحياة التي يجيهاها الشاعر ، أو اغفلنا حساب الزمن ومبدأ التطور - فما أنصفنا الأدب ولا النقد ولا طبائع الأشياء .

* * *

من ابرز سمات النقد الجائر الذي يتردد على السنة هؤلاء المهاجمين اليوم اتهام ادبائنا الموتى بالأقطاعية والرجعية والنفاق ، وإهدار مزاياهم جميعاً لهذه النظرة الخاطئة التي يرمون بحاصبها زوراً وبهتاناً من هؤلاء الذين نصبوا انفسهم حكماً او متحكّمين في مصائر الأدب .

وأخص هؤلاء المفترى عليهم اليوم شوقي والرافعي .

فمن الظلم ان يرمى شاعر مثل أحمد شوقي أو كاتب مثل مصطفى صادق الرافعي بالأقطاعية أو النفعية أو النفاق جزافاً .

فاذا مجد شوقي لإسماعيل ، أو أشاد بتوفيق وأضفى على فؤاد ، فلماذا نسمي ذلك نفاقاً ولا نسميه وفاء لمن أسبغوا عليه الرغد والرفاهية ، ما دام منبعثاً عن عاطفة صادقة ??

ومنذ متى كان الوفاء نفاقاً ، وما من هؤلاء المتطاولين على شوقي إلا تمنى يجدد الأتف ان يلج هذه الأبواب ، لولا انها امتنعت عليه ، وأمعنت في صدودها ، فارتد عنها وهو يقول : ان عنها حصرم !!?

على ان شوقي كان صورة حية للفن في تطوره ، فاذا كان التطور في طبيعة الاحياء ، واذا كان التطور السريع من سمات الفن ، فقد كان شوقي مثلاً بارعاً لهذا المبدأ ، فشعره مرآة صافية انعكست عليها احداث هذه الفترة المتقلبة التي عاشها بما فيها من حل و مر .

نشأ في القصر ، فكان شعره المبكر تعبيراً صادقاً عن الوفاء للقصر ، ثم اتصل بالوسط الأرستقراطي خارج القصر ، فمدح ، ورثى ، ووصف ما التمع في مرآة حياته بطريقة فيها الكثير من الصدق والكثير من الأصالة .

ثم كانت سلسلة متلاحقة من الزلازل التي كان اولها الحرب ،

وليس آخرها النفي ولا الثورة المصرية التي اعقت الحرب ، فكان شوقي لحن الوطنية المدوي ، وأغنيتهما العذبة ، وسجل احداثها المتتابعة .

وبينما كان يمزج في شعره بين الوطنية وبين اولياء نعمته الذين تحسّدع في ولائهم للوطن ، كان هناك شاعر أو كاتب من ثوار تلك الفترة الذين لا نجحد فضلهم ، والذين اجترأوا على هذه المقامات التي كانت سامية يومذاك ، فهاجوها ، ولكن هذه الجرأة وتلك الهجمات لم تنتج أثرها المرجو ، ولم تمهد للثورة بقدر ما مهد لها شعر شوقي الذي كان خميرة للثورة يشيعها في روح الشعب ، ويقدر ما كانت ألقانه باعثة لتلك الرجفة في اعصاب الشعب الذي استجمع طويلاً ، والذي استجمعت معه الاجيال التالية متربصة لهذه الوثبة المباركة .

واشعار شوقي التي يتغنى بها الشعب ، والتي ألهمت حماسه اكثر من ان نستشهد لها ، واثرها في ثوراتنا الموقفة اوضح من أن توضح .

فلم إذن ننظر الى شوقي وامثاله من الزوايا المظلمة ، لنتهمه بالترويج للرجعية والاقطاعية ؟ ولماذا لا نقدر فيه هذا التطور المسير لروح النهضة ؟

ولماذا تنكر عليه انه مدح يوماً من لا يستأهل في نظرنا هذا المدح ، ثم عاد الى حظيرة الشعب ، وسائر نهضته ، ووقف عليها شعره ؟

هل من المفروض ان يتخلى الأديب عن جزء من حياته ليعد في التقديميين ؟ هل في الممكن ان يتخلى الانسان عن عضو من جسده : يده أو رجله مثلاً لأنها عاشت معه حياة الطفولة الضعيفا أو الصبا الغض ؟

* * *

ليس معنى النهضة ان تقطع جزءاً من تاريخنا ، أو ننسى ماضيها كما كان اسود ، وإلا فما يدري الاجيال المقبلة اننا تطورنا ؟ ما بال روما لم تنسى نيرون وقد تلظت في ناره ؟ وما بال الانسانية لم تنسى الطوفان وقد كاد يأتي عليها !!?

* * *

ليس ذلك دفاعاً عن شوقي ، فأنا ممن ينكرون عليه مدائحهم التقليدية الباردة التي استهل بها حياته الادبية ، وذلك من ابرز عيوبه . ولكننا اذا نظرنا الى مدائحهم بعد تلك الفترة وأيناها تتحول

- البقية على الصفحة ٤٧ -

النقد الجائر

— بقية المنشور على الصفحة ٣٢ —

رويداً رويداً الى شيء آخر غير الملق والزلفى التقليديين ، وتصبح توجيهاً وحثاً على الاعمال الصالحة ، ووضع مثل وطنية واصلاحية عليا يتجه اليها اولئك الممدوحون ، وقد ذهبت عنها الصور التقليدية السمجة من جمال البدر ، وشموخ الجبل ، وكرم البحر ، ورقة النسيم ، وشجاعة الأسد ...

وشوقي نفسه يشاركتنا هذا الإنكار ، ويعقبنا من هذا الدفاع حينما يعترف بهذا العيب ، فيقول وكأنه يستغفر من هذه السقطة :

« إنني قرعت ابواب الشعر وانا لا اعلم من حقيقته ما اعلم اليوم ، ولا اجد امامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحياء يحدون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الحديوي ، فما زلت اتنى هذه المنزلة حتى وفقت اليها ، ثم طلبت العلم في اوربا فوجدت فيها نور السبيل ، وعلمت انني مسؤول عن تلك الهبة . »

واذا طالبنا شوقي الذي عاش في اوائل هذا القرن ، وسط دياجير الاستعمار المدهمة ، وفي احضان الأقطاع المستحکم ، وفي رعاية هؤلاء السادة الأتراك الذين يسندهم الاستعمار المسلح .. اذا طالبنا شوقي وسط هذه العوامل ان يكون نائراً مندفعاً ، يهتف وحده للثورة ، وينتفض وحده على اولياء نعمته وينقض وحده على نار الانكليز وحديدهم .. فبا اذاً نطالب أدباءنا وشعراءنا اليوم ؟ .. أولئك الذين يضطربون في حياتنا بعد ثورة ٢٣ يولييه وما تلاها من احداث ، وكثير منهم صموا فلم يسمعوا الصيحة ، وبكفوا فلم تتردد للثورة النائمة أصداء على السننهم التي طالما سالت بالملق الفاضح والرياء البغيض بالامس القريب .

وقليل منهم انطلقوا يبرجون ويفأفئون ، فجاءوا بالعت بارد والحبال المسف ، والمعاني الميتة ، ولم يزيدوا على ان غيروا العنوان وروصوا كلمات القاموس ، وكأنما يؤدون واجباً ثقيلاً ، وضرية فادحة .

واقل القليل من استطاع ان يخلق ، وينبعث في حلبة الثورة ، لأنها كانت كامنة في روجه قبل أن تستعلن وتصبح

حقيقة تجلجل اصدائها في أنحاء العالم .

فما رأى نقادنا الاكرمين في هذا ؟

اما زالو حائقين على شوقي .. وعلى صوته يستيقظ الغفاة ، وبوحي شعره العذب ينبعث العاملون ؟

اما زالوا يبحر حونه ، وهم لو نظروا حتى الى مدائح البغيضة لوجدوها توريطاً لحكام ذلك الزمن ، وحثاً لهم على العمل للانحد والاستقلال والاصلاح والدستور والتعليم والجيش ؟

★ ★ ★

والرافعي ..

الرافعي الذي يرمى اليوم بالاقطاعية والرجعية والنفاق ، لأنه دعا فيما دعا الى الروحية واعلى من شأنها — بريء كل البراءة ، وضحية لسوء فهم او سوء تقدير لأدبه الرفيع .

وكتابه « المساكين » الذي يتهم من اجله دليل ناصع لا على أنه كاتب فحسب ، ولكن على أنه إنسان متسامي الانسانية . ذلك الرجل الأديب الذي كانت ثورته على الرجعية والاقطاعية والعبودية مضرب المثل ، حينما ثار على النصر ورمى في وجهه بكلمة الكبرياء المنغترسة .. يوم كان طغيان القصر ورجاله هو الطوفان الذي لم يمتص منه معتصم .

والرافعي هو الاديب الذي يمثل الثورة العنيفة الجارفة في كل ما كتب ..

دعا الى المحبة في شبابه فأنشأ أدب الحب ، ودعا الى القوة في كهولته ، فأشاع أدب العنف ، وكافح في سبيل الدين والأخلاص بأسلحة أسرها شواظ النار ورجوم الشياطين تنساقط على رؤوس المرجفين او المنشككين أو الاباحيين .

لقد هاجم الأقطاع في قصه الرمزية التي انتزعها من زوايا التاريخ وفي احاديثه الصريحة التي حثها التراب في وجه المترفين .

ولا أدري ماذا أختار مُثلاً وشواهد من احاديثه وقصصه

التي تتتابع في آخر وأنضج ما كتب وهو كتابه « وحي القلم » فان شئت فاقرأه جميعه فهو أبرع ما خطه قلمه في ذروة نضجه الفني ، وان شئت فاقرأ ما كتبه عنه حواريه وتلميذه سعيد العريان في كتابه « حياة الرافعي » وان شئت فاقرأ له « حديث قطين — الطفولتان — أحلام في الشارع — أحلام في قصر — بنت الباشا — قصة زواج — عربة اللقطاء .. » في

الجزء الأول من كتابه هذا .

من جمال الحياة

خلف هذي القضان، تشد أرواح، وتحت السياط، دنيا ثور
كل ززانه، تضم جريماً، هي نار، للمؤمنين، ونور.
يدنا - يا حياة - شدت الى الأعصر، نضي بجرها، ونغشي،
ونغشي، خلف الجبال من الأحزان، شمساً وضئته، كالشمي
ظلشنا، لم يزل يسير، ويمتد، فراشاً لليائسين، طرياً
فرح، في قلوبنا، مستجد، كان حياً، ولم يزل بعد حياً
نصوح فاخوري حمص

يا جمال الحياة، ما زلت دفاقاً، جديد العطاء، كالينبوع
تعشق النفس ان ترودك، نشوى، بين سيل الجراح، بين الدموع
دهم الليل عصرنا، وهو يجري، وهو يجري، كالجدول الرقراق
من وراء الظلام، تنبثق الاضواء، حررى، من وثبة وانطلاق.
انا - يا حياة - ننسج منك الشعر، بكراً، من نبضك المستمر،
من لهات المسلول، من سكتة الميت ومن جمعة الخطى وهي تسري
قيل: «دب الصقيع، في كل عرق، بعد ان كان، كالشواظ، يحن»
من تبعثر اسلاءه، ظفر الموت، ويشد بالردى، فهو نحن.

مطرح ما يجي في عيني النوم انام وانا مرتاح البال
وقال حضرة الناقد ما معناه: كيف يقال هذا في نشيد
عسكري يردده الجنود في ميدان القتال؟ كيف ينام الجندي
في اي مكان يأتيه النوم؟ كيف تسمحون بأرجال الجيش ان
يقرر هذا النشيد العسكري وفيه هذا البيت ..
وانبعث في ثورته على النشيد ومؤلفه ومنشده، والجيش
وقواده، وأقام الدنيا وأقعدها على هذا الاساس .
وتساءلت بين الحيرة والاشفاق: متى كان هذا النشيد
عسكرياً؟ وفي اي جيش من جيوش (التنابله) قرر هذا
نشيداً؟ .. تساءلت فلم أزد على ما أعلم من انها اغنية تعبيرية
استدعاها مشهد من مشاهد احدي روايات عبدالوهاب،
ورثيت لحضرة الناقد التزيه الذي راح ضحية الوهم الخاطيء،
وان كان أمثاله من الناقدين كثيرين ينقدون على طريقة « لا
تقربوا الصلاة ... فويل للمصلين .. »

وبعد .. فهل أراني مكثفياً بهذا الحديث عن هذين
الاديين دليلاً على تجني المتجنين، والانتصاف لبراءة الابراء؟
لسنا معصومين، ولكننا نرجو - أبداً - ان نكون
منصفين . فأنصفوا التاريخ من انفسكم ايها النقاد، وحرروا
موازينكم من الزيغ والخلل اذا فرضتم انفسكم قادة وموجهين.
ولا تشيروا تراب القبور، ولا تؤرقوا عظام الآباء في
مراقدهم، فما في مثل هذا كبير فجار، ولا عظيم ثناء .

القاهرة: رضوان ابراهيم

كما هاجم الطغيان في كل خطرة من خطرات قلمه .. طغيان
الأفراد وطغيان الحكومات، ودعا الى القوة ومكافحة الاستعمار
في كثير من مقالاته، أذكر منها على سبيل المثال « لو - يا
شباب العرب - في محنة فلسطين - وفي كثير من احاديث
الباشا .. » في الجزء الثاني . ودعوته الى الثورة كانت دعوة
مستجابة، ولا اختار لها إلا مقالة واحدة كان يستلمها
من عالم الغيب، هي مقالة « الرجل الالهي » . تلك المقالة التي
اختارتها وزارة المعارف المصرية لتكون نموذجاً لادب
الرافعي او لادب القوة فيما قررته للسنة التوجيهية بمدارسها في
عام الثورة الميمون، فيها تصوير للاستبداد كيف يقتل
الشعب، وفيها منهج للتحرر كيف يكون، وفيها
وصف مستوعب لبطل الثورة المنقذ، حتى أشكل على الطلبة
فحسبوا كتب بعد الثورة بقلم من اقلام ابطالها .

انا أوصي ناقد الرافعي - كما انصح لكل ناقد - ان يتروى
ويتمعن قراءة ادبه قبل ان يهاجمه، فانه لن يرضى عنه فحسب،
بل سيخرج من قراءته صديقاً ينتصف له، ومهما كان الناقد نائراً
فسوف يجد الرافعي قد سبقه أسواطاً وأشواطاً .

فليس أخطر على الأثر الاولي من القراءة السريعة، وليس
أضر بسمعة النقد الأدبي من النظرة السطحية .

أقول هذا وانا ما زلت اذكر شيئاً يثير الضحك والاشفاق
معاً .. اذكر اني قرأت نقداً لأغنية الاستاذ محمد عبدالوهاب
التي مطلعها: احب عيشة الحرية بزى الطيور بين الاغصان
وقد تحامل الناقد وشهر، وانصب نقده وتشهيره على قوله: -